المحاضرة الرابعة:

الله والتاريخ (القديس اوغسطين)

استحدثت المسيحية فكرتين من الأفكار الرئيسية في كتابة التاريخ عند الإغريق والرومان، أولهما فكرة التفاؤل بالطبيعة الإنسانية، وثانيتهما فكرة تستند إلى جوهر الأشياء، وتقول بقيم أبدية تكمن وراء عملية التغيير التاريخي، تقوم هذه الأفكار المسيحية على ما يلي:

أولا: أن الإنسان لا بد أن يعمل في الظلام، دون أن يعرف نتيجة عمله، و هذا العجز الذي يقعد به عن بلوغ أهداف مرسومة محدودة سابقة للنشاط، وأن الأعمال التي تحققت بفعل النشاط الإنساني لم تحدث لأنها ثمرة جهود الإنسان أو تفكيره، بل بفضل الله و توجيهه.

ثانيا: أن الأبدية لله وحده، وكل ما عدا ذلك من خلق الله، بذلك تختفي أبدية الروح ووجودها منذ طريق توجيه طبيعته توجيها جديدا نحو القدم، وكل ما خلق الله كان في قدرته تعديله، وذلك عن غايات جديدة وقد أثرت الأفكار المسيحية على فكرة التاريخ، وذلك في ثلاثة اتجاهات:

أ- ظهور نزعة جديدة نحو التاريخ تذهب إلى أن نشاط الأحداث التاريخية ليس من قبيل النشاط الإنساني في أهدافه، وإنما هو إقرار لمشيئة الله، وما دامت مشيئة الله قد قصد بها أن تكون مشيئة الإنسان.

ب- الوقوف على حقيقة نشاط القوى التاريخية، وتفسير حياة وطبيعة القوى نفسها بوصفها الأساليب التي ابتدعتها الأهداف الإلهية، ومن ثم كانت له أهميتها التاريخية.

ج-اعتقد المسيحي أن الناس جميعا على قدم المساواة أمام الله، ولا يوجد شعب اصطفاه الله دون سائر الشعوب، وكل فرد وشعب تكون يساهم في تنفيذ مشيئة الله، ومن ثم تكون العملية التاريخية في كل زمان مرحلة من هذه العملية التاريخية بمعناها الكامل.

يتميز التاريخ بالمنظور المسيحي بالخصائص التالية:

1-أن يكون التاريخ قدريا حيث لا ينسب الأحداث لحكمة البشر.

2-يهتم هذا التاريخ بالكشف عن تدبير مفهوم يتجلى في المجرى العالم للأحداث، وبوصفه يعلق أهمية كبرى على حياة المسيح التاريخية، ويجعلها محور الحوادث.

3- أن التاريخ يقسم إلى حقب أو فترات لكل فترة طابعها الخاص، وتفصل بينهما وبين الفترة السابقة لها، حادثة تعتبر من وجهة اللغة الفنية التي اصطلح مثل التاريخ، بداية عصر.

1- أوغسطين ومفهوم التاريخ:

كان أوغسطينوس رجل دين أقلقه ما حدث من استيلاء القوط وهم من القبائل الجرمانية المتبربرة على روما عام 410م، وزاد حزنه أن يذكر اليائسون من الرومان أن هذا الاستيلاء كان نتيجة تخلي الرومان عن ديانتهم القديمة التي علا شانها في ظلها ثم اعتناقهم الدين الجديد. ويعتبر أوغسطين أهم المفكرين في تاريخ المسيحية على الإطلاق، كما تعتبر معالجته للتاريخ المسيحي ذات قيمة خاصة، ومع أن أوغسطين كان فيلسوفا، فأنه ركز أفكاره على تقبله للعقيدة المسيحية بدرجة أكثر من تقبله للفلسفة، لأنه اتخذ فكرة المسيحية عن الله.

جاءت أفكار القديس أوغسطين في أهم كتابين هما: مدينة الله والاعترافات حيث دافع فيهما عن المسيحية باعتبارهما المثل الأعلى للدولة أو بالأحرى مدينة الله على الأرض، وأن الدوام لله وحده وللملكوت السماوات، وأن العناية الربانية هي التي تسير أحداث التاريخ إلى غايتها. وبتقديره قسم المدينتين وترجع إليهما سائر المجتمعات البشرية وهما: مدينة السماء(الله) ومدينة الأرض(الشيطان) تقوم الأولى على العدالة والفضيلة والسير بمقتضى وصايا الدين وأحكامه، وتقوم الثانية على الظلم والاستبداد واسترقاق الشعوب المنضمة إليها، وستضل الحرب القائمة بين أنصار هاتين المدينتين إلى أن يفصل بينها السيد المسيح في نهاية العالم، فيذهب أنصار مدينة السماء إلى النعيم الخالد، ويذهب أنصار المدينة الأرضية إلى جهنم وبأس المصير.

2- مدينة الله:

يذكر القديس أوغسطين في كتابه مدينة الله أن التاريخ يدور حول كل من المؤقت والأبدي، فالله أبدي وهو خالق الزمن، ولا يجوز فهم الأبدي ولا وصفه من جهة نظر مؤقت. فالله موجود وحال في الزمن كله مثلما هو أبدي، والزمن وإن لم يمكن فهمه بمفاهيم الذهن، ولذلك فإن الله في إطار التاريخ البشري هو العناية الإلهية.

وقد شبه أوغسطين .

النزعات البشرية: الخير يقابل مدينة الله، والشر يقابل مدينة الأرض. أي أنه كما في الإنسان نزعتين حب الذات إلى حد الاستهانة بالله، ونزعة حب الله إلى حد الاستهانة بالذات. وكانت مدينة الله ستقر على حب الله، خاصة بالذين يعيشون وفقا لمشيئة الله برضا وقبول، وهي التي تستقر على حب الله، أما مدينة الأرض تعمل على نشر الظلم و نصرته، ولقد أدان أوغسطين مدينة الأرض وصمها بالإثم والخطيئة الأولى المتوارثة عن آدم. إلى جانب ذلك، يذكر أوغسطين في كتابه مدينة الله.

أن للتاريخ درسا هاما، فهو يكشف لنا عن الكوارث التي حلت بالرومان أيام وثنيتهم، وأن كل الأحداث التاريخية هي ترجمة للإرادة السماوية، وذكر أنه لا يقبل من صفحات الماضي إلا ما ورد في الكتب

المقدسة، ذلكم التاريخ القدسي الذي يحكى ما كان ويكشف عما سيكون، وهو الذي تثبت الأيام صحة نبؤاته التي تقع كل يوم أمام المبصيرن.

3- نقد أفكار أوغسطين:

أولا، أنه رفض قبول نظرية التعاقب الدوري للحضارات ذلك أن الأحداث و فقا لهذه النظرية تميل إلى أن تتكرر بينما اللاهوت المسيحي من صلب المسيح أهم واقعة تاريخية منذ بداية الخلق. وبهذا أكد أوغسطين على فردية الواقعة التاريخية ومن ثم استحالة تكرارها

ثانيا، أفكار أوغسطين أول محاولة تعبر عن نظرة كلية إلى التاريخ وتفسير لمسار وقائعه، إلا أنه قيد

مفهوم العناية الإلهية تقييدا لم يتجاوز فيه أصول الإيمان المسيحي، ومن ثم يتعذر أن يسلم بنظريته غير مسيحي، كما أنه هوجم من حيث أنه جعل البشر كقطع الشطرنج في لعبة على رقعة من الزمان بين الله والشيطان، وأنه من غير حق تصور حضارات العالم القديم على أنها تمثل الشر والحق.